

ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة



﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُ الظَّالِمِينَ مَخْتُطِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأُمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود/ 118-119).

لو شاء الله قسر الناس وقهرهم وسلب الحرية والاختيار منهم لو شاء الله لخلق الناس كلها على نسق واحد، وباستعداد واحد، نسخاً مكرورة لا تفاوت بينها ولا تنوع فيها، وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدره على هذه الأرض، وليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في هذه الأرض.

ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته، وأن القدرة على حرية الإتجاه، وأن يختار هو طريقه، ويحمل تبعه الاختيار، ويجازى على اختياره للهدى أو الضلال، هكذا اقتضت سنة الله، وجرت مشيئته في أن يكون لهذا المخلوق أن يختار، وأن يلقي جزاء منهجه الذي اختار.

شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة - شاء الله أن لا يجبرهم أن يكونوا أمة واحدة - فكان مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين - لاختلاف أهوائهم - وأن يبلغ هذا الإختلاف أن يكون في أصول العقيدة - إلا الذين أدركتهم رحمة الله - الذين اهتدوا إلى الحق - والحق لا يتعدد - فاتفقوا عليه، وهذا لا ينبغي أنهم مختلفون مع أهل الضلال.. من المقابل الذي ذكره النص.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأُمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود/ 119).

يفهم أن الذين التقوا على الحق وأدركتهم رحمة الله، لهم مصير آخر هو الجنة تمتلئ بهم، كما تمتلئ جهنم بالضالين المختلفين مع أهل الحق، والمختلفين فيما بينهم على صنوف الباطل ومناهجه الكثيرة.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (هود/ 118).

منذ أن نزلت هذه الآية، حتى اليوم، وأكثر الناس، أو الكثير منهم يقولون: ولماذا لم يشأ، ويا ليتة شاء ليريح البلاد والعباد من إحن الطائفية، وويلاتها؟ ويتضح الجواب مما يلي:

1- ينبغي قبل كل شيء أن يكون على يقين بأنّ □ سبحانه لا يريد لعباده وعباله أن يتباغضوا ويتناحروا كيف وهو القائل: (وَلَا تَدْرَأُونَ فِتْنَةَ شَلُوبَا) (الأنفال/ 46)، وليس من الضروري إذا لم يكرههم على الوئام والوفاق أن يريد لهم النزاع والصراع، فإذا قلت - مثلاً - لا أحب أن يكون أولادي على رأي واحد في السياسة، فليس هذا إنك تريد لهم متقاتلين متناحرين.

2- إنّ للإكراه على الدين - بمعنى الإعتقاد - طريقين:

الأوّل: استعمال القوة.

الثاني: أن يخلق □ الإيمان في القلب - كما خلق اللسان في الفم.

الطريق الأوّل: يتناقض مع مبدأ الدين نفسه، بل ومنطق العقل أيضاً، لأنّ القوة لا تصنع الإيمان والاعتقاد، بل العكس هو الصحيح، فإنّ الإيمان الحقّ طريقه الأدلة والبراهين، ومن أجل هذا عرض القرآن هذه الأدلة في أساليب شتى، وحض الإنسان على النظر إليها، وتدبرها، لينتهي منها مختاراً إلى الإيمان با □ ورسوله واليوم الآخر، أما الأمر بالقتال من أجل الدين، فالمراد منه القتال للعمل بشريعة الحقّ والعدل، والحفاظ على سلامة المجتمع وأمنه.

أمّا الطريق الثاني: وهو أن يخلق □ الإيمان في قلب الإنسان فإنّه يخرج الإنسان عن إنسانيته، ويجعل أفعاله بالنسبة إليه، تماماً كالثمرة على الشجرة، لا إرادة له ولا كسب ولا تفكر وتدبر لخلق الكون وما فيه، ولا استحقاق لمجد أو ذم، ولا لثواب أو عقاب على شيء.

والخلاصة: إنّ □ سبحانه لم يشأ بطريق من الطرق أن يكره الناس على الإيمان، لأنّه لو شاء لسلب عنهم صفة الإنسانية، وكانوا أشبه بالحيوانات والحشرات، لا يتحملون أي تبعة، ولا يحاسبون على شيء، ولكن شاء □ سبحانه أن يميز الإنسان عن كلّ مخلوق، ويرتفع به إلى حيث لا شيء فوقه إلا خالق الكون والإنسان، ومحال أن يبلغ هذه العظمة من غير جهد واختيار، ولذا أمده □ بالقدرة والإدراك، والوجدان، والهداية والنجدين، ثمّ ترك له حرية الاختيار ليتحمل وحده تبعة ما يختار، وتتحقق له بذلك الإنسانية الكافية الوافية.

فجاءت النتيجة أن يختلف الناس في عقائدهم وأدائهم: (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ مُمَجَّدِينَ) (هود/ 118)، أي إنّ الناس اختلفوا فيما مضى، وسيستمرّون على هذا الاختلاف إلى الأبد لأنّه نتيجة حتمية لجعل الإنسان مخيّراً غير مسير، يتجه إلى حيث شاء وأراد (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)، والمراد بالمرحومين الذين يتوخون الحقيقة بإخلاص وتجرد، وهؤلاء لا يتطاحنون ويتناحرون على الحطام، وإذا اختلفوا فإنما يختلفون في الرأي ووجهة النظر - واختلاف الرأي لا يفسد في الود قضيته - وتعدد وجهات النظر شيء مفيد، لأنّ القول القوي هو الذي يكون قوياً رغم وجود الأقوال الأخرى.

(وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي إنّ □ خلقهم لرحمته وللتراحم فيما بينهم، وإنما تشملهم رحمته تعالى إذا طلبوا الحقّ وعملوا به لوجه الحقّ.

وقال أبو بكر المعافري الأندلسي في أحكام القرآن: إنّ □ خلق الناس ليختلفوا فيما بينهم، لا ليتراحموا يتعاطفوا، لأنّ □ بزعمه يريد الشر والكفر والمعصية، - على حدّ تعبيره - ولا ينطق بهذا إلا شر الناس، وأجرأهم على □، لأنّ من يعبد رباً يريد الشر فبالأولى أن يكون هو مريداً له.. وإنّ أراد □ الشر والكفر والمعصية كما يقول هذا المعافري، فأى فرق بينه وبين من قال: (لَأَعْرَبَنَّ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ) (ص/ 82)، سبحانه تعالى عما يصفه الظالمون.

(وَتَمَّتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)، أي أنّّه تعالى يملأ جهنم بالعصاة أتباع الشيطان من الجن والإنس، وفي هذا المعنى قوله تعالى خطاباً لإبليس: (فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقْوَلُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) (ص/ 84-85).

هم على ا

المصدر: كتاب دروس من القرآن